الخصائص المدينيّة والمعمارية للمدينة العربية الإسلامية نهاية العصر العثماني وتحولاتها إبان الإحتلال الكولونيالي "نهاية القرن الـ19 ومطلع القرن الـ20"

د. خالد عمر تدمري
معهد الفنون الجميلة والعمارة
-الجامعة اللبنانية-

مقدّمة:

معظم المدن الهامة في الوطن العربي مشرقا ومغرباً هي مدن إسلاميّة تاريخيّة، انتقلت إلينا أجزاؤها كما كانت عليه عند تشييدها، حاملةً معها تحولات مدينية متواصلة لا قطع فيها. وظلّ مركزها يقوم بوظائفه الثلاث التي أنشئ من أجلها، وهي: الوظائف الدينية، والمدينية التجارية،ووظيفة الحكم. إذ نجد في مراكز معظم هذه المدن، الجامع الكبير ومساجد أخرى أصغر منه ومباني الحكم، والأسواق. ومن هذا المركز تنطلق الطرق المستقيمة أحياناً والمتعرّجة كالمتاهات أحياناً أخرى، إلى الأحياء السكنية في الأطراف. وتميزت الأجزاء التاريخية هذه، بخاصيّات عديدة هي ثمرة تكاملها مع بيئتها الطبيعية والثقافية، إنها خاصيّات الأصالة والإنتماء التي لا تزال واضحة إلى الآن في تكوين نسيجها العمراني المتكامل.

ترك العصر العثماني أثره على عمارة العواصم العربية في بلاد الشام وبلاد المغرب العربي، حيث يبرز في الجزائر العاصمة في حيّ القصبة وفي عمارة عدد من المساجد والقصور، وقد نقلت العمارة التركية معها تأثيراتها البيزنطية والسلجوقية والعثمانية في عمارة العقود والقباب وغيرها، وقبل الاحتلال الفرنسي للجزائر كان حي القصبة عامراً بالكثير من المرافق الأثرية والمباني العامة، ووصل عدد المساجد الكبيرة فيه إلى ثلاثة عشر مسجداً وأكثر من مئة مسجد صغير واثنتي عشرة زاوية،جلّها اندثر خلال الاحتلال الفرنسي للبلاد، بعد أن هدمها رجاله كما هدموا جدران الكثير من بيوتها بحجّة إقامة الطرقات وإدخال الضوء إليها، أو تحت ذريعة المحافظة على الأمن في أحيائها.

فقد حلّ الإحتلال الكولونيالي في وطننا العربي باكراً، في الجزائر في العام 1832، وفي عدن في العام 1837، وفي أوائل العشرينيات من القرن الماضي ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى في كلٍّ من سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ومصر وغيرها، وقطع الاحتلال الكولونياليّ بشكلٍ فجّ التطور الطبيعي لمدننا الذي استمر متكاملاً مع بيئتها الطبيعية والثقافية قروناً، وأسقط فوق النسيج المبني التقليدي لهذه المدن، تنظيماً مدينياً مستورداً صمّمه منظّموا المدن الذين جاؤوا معه، فهدم مثلاً أجزاء كبيرة من النسيج التقليدي المبني في بيروت وحلب والجزائر وتونس، وبنى فوق الركام مدينة كولونيالية مستوحاة من النمط الهوسماني الباريسي في شبكة الطرق وفي العمارة، كما أضاف أجزاء وأحياء جديدة عكس فيها النمط الأوروبي في التخطيط.

ومع ذلك فقد شكّلت هذه المدن في فترات تاريخيّة متلاحقة، بين الثلث الأخير من القرن التاسع عشر حتى أواسط القرن العشرين، نماذج للعيش المشترك حيث التقت فيها شعوب واثن وأديان مختلفة، وشكّلت نسيجاً اجتماعيا غنياً

ومتنوعاً أثمر لقاؤها ثراءً ثقافياً وحضارياً تجلّى في شتى المجالات في العمران وفي الإبداع الثقافي وفي النشاط الاقتصادي.

أولاً: تخطيط وعمارة المدن العربية في العصر العثماني:

لم يكن العصر العثماني سوى فصل من فصول تاريخ المدن العربية، لكنه فصل دام ثلاثة أو أربعة قرون وفقاً لكل حالة، وقد طال أمده أكثر من العصر الحفصي في تونس، أو العصر الفاطمي في مصر، أو المملوكي في سوريا. ومن ناحية أخرى كان هذا الفصل مرحلة رئيسية في تاريخ هذه المدن وذلك قبل أن يفرض ثقل الإستعمار الغربي والوجود الإستعماري الأوروبي تحديدا كان له تأثير حاسم على البنيان الحضري، وعلى التخطيط المدني.

وقد استمرت المدن العربية الخاضعة للسيطرة العثمانية في الإلتزام إلى حدّ ما بمبادئ التخطيط المكاني والتنظيم الحضري التي حدّدت تطورها خلال القرون السابقة، ولكن العصر العثماني قد غيّر هذه المبادئ بالنسبة لبعض النقاط، فقد ازدادت أهمية العوامل الإقتصادية في بنيان المدينة خلال عصر نمت فيه التجارة نموّاً غير مسبوق، وذلك بسبب تكوين الامبراطورية العثمانية حول البحر الأبيض المتوسط وتغلغل الروح التجارية الأوروبية. وهكذا وصلت المراكز الحضرية بالمدن التجارية الكبيرة إلى أبعاد عمرانية لم تشهد مثلها من قبل.

ولا شك أيضاً أن تأثير المفاهيم العثمانية بشأن استقلال الجاليات قد أدى إلى تنظيم المدن على أساس المجموعات المهنية والعرقية والدينية والجغرافية التي قدمت الكوادر لإدارتها، وقد شهدت الطوائف الحرفية تطوراً غير مسبوق، وازدادت الطوائف الدينية والقومية قوّة، بخاصة جاليات "الذميّين" من اليهود والنصارى، وذلك بسبب نموّ المبادلات وتشجيع الإمبراطورية العثمانية لتنقلات

السكان، وبسبب تسامح السلطات العثمانية النسبي تجاه الأقليّات. وإذا كان نموّ الحياة المشتركة للطوائف قد حقّق رفاهية هذه الأقليّات وساهم في ازدهار المدن الإقتصادي والسكاني، إلاّ أنه أدّى أيضاً إلى زيادة تجزئة المدن.

إن ظروف الحياة الإجتماعية ذاتها انقلبت أوضاعها بسبب الآثار الناجمة عن أنماط استهلاكية جديدة تماماً، لقد أدّى إدخال البن والسجائر وظهور المقاهي كأماكن جديدة للضيافة إلى حدوث تأثير عميق في الحياة الاجتماعية الأمر الذي لم تتمّ دراسته بدرجة كافية حتى الآن، وبالرغم من أن الحياة الثقافية والفكرية اتسمت ببعض الوهن، إلاّ أن المدن العربية شهدت في ظل حكم العثمانيّين مرحلة أساسية من النموّ المستقل تم خلالها المحافظة على الرأسمال المعماري الموروث عن العصور القديمة بل وإثرائه.

وعلى هذا، سيكون من الظلم أن لا نعترف بالأهمية التي حملتها هذه الفترة التاريخية الطويلة بالنسبة لتاريخ المدن الكبرى العربية، لقد حدث الانقطاع الحاسم في تاريخ هذه المدن وبدأت التحوّلات التي لا تزال جارية أمام أنظارنا بعد العثمانيّين لا قبل ذلك، إن المدن العربية التي نعرفها اليوم، أو بالأحرى بقاياها الكائنة في الأحياء القديمة، هي تلك التي ورثناها عن العصر العثماني والتي يمكننا اليوم من خلال عمارتها القائمة الكشف عن ماضيها الأكثر قدماً.

كان تقييم فترة السيطرة العثمانية على البلدان العربية بصفة عامة وبنظرة خاطئة سلبياً للغاية، بل في بعض الأحيان تم تجاهلها تماماً. إن الإنحطاط المشوّه لحقيقة الحقبة العثمانية والذي يشار إليه في بعض كتب تاريخنا، كان واضحاً بصفة خاصة في المدن حيث ازدادت إقامة الفواصل في الحياة الحضرية في ظل نظام "الملّة" (أي تنظيم جاليات الأقليّات الدينيّة في تجمعات شبه مستقلة) والذي كان من نتيجته حدوث تصدّع حقيقي في البنيان الحضري أدّى إلى تفسّخ

المدينة بصورة يتعذّر إصلاحها، ويكفي لتوضيح وجهة النظر هذه الاستشهاد ببعض الأقوال الواردة في دراستين تعدّان من أفضل الدراسات الخاصة بتطور المدن العربية التاريخية. يقول مارسيل كليرجيه في دراسته عن مدينة القاهرة في ظل العثمانيين: "اختفت تدريجيّاً وبشكل خفي وانطوت على نفسها، وتركت بقايا ماضيها المجيد يتصدّع بهدوء... عادت القاهرة إلى التعمير المبعثر والذي كان العرب الأوّلون يفضلونه... إن الفوضى المتزايدة في التصميمات وصعوبة المواصلات تعكسان أيضاً الفوضى السياسية والاقتصادية". ويقول جان سوفاجيه عن مدينة حلب في ظل العثمانيّين: "إن عناصر الإنحلال تزاول مفعولها من جديد مع الإتجاه إلى الإفراط في تجزئة المركز الحضري إلى أقسام معزولة. إن حلب في ظل العثمانيّين ليست سوى سراب خادع، فهي واجهة فاخرة لا يوجد خلفها سوى خراب"، وطبعاً فإن هذا الكلام يخالف تماماً واقع مدينة حلب التي أغناها العثمانيّون بشتى أنواع العمائر وأفخمها، والتي لا تزال قائمة بالمئات وتشهد على حضارة وتطوّر المدينة في ظل حكم العثمانيين الذين أولوا حلب عناية خاصّة وجعلوا منها حاضرة تجارية ضخمة على خط طريق الحرير التجاري العريق.

يمكننا الاستفاضة طويلاً في شرح أسباب هذا العرف المتوارث بعدم الرضى عن الفترة العثمانية، لقد كانت أعمال مؤرّخي الإستعمار الفرنسي تتّجه بطبيعة الحال إلى تسويد وتشويه الحالة السابقة لها في البلدان والتي زعم المحتل صراحة أنه يعيد توطيد السلام والرفاهية "الرومانية" فيها! هذا واضح بشكل خاص في الجزائر فمهما كانت القيمة الحقيقية للأعمال التي أنجزت في الجزائر العثمانية في القرن التاسع عشر، تمّ التعتيم عليها وتشويهها وإخفائها. إن الاضطرابات والفوضى السائدة قبل الاستعمار الأوروبي قدّمت تبريراً للسيطرة الإفرنجية التي سوّقت فكرة عودة نوع من العهد الذهبي.

وفي أكثر الأحيان اشترك المؤرّخون العرب أنفسهم مع الأسف في هذا العداء، ونظروا إلى هذا الجزء من تاريخهم الإسلامي باعتباره فترة احتلالية واستعمارية، لا سيّما أن الفترة العثمانية انتهت أحياناً بصورة مأساوية كما حدث في سوريا وفي المشرق حيث تمّ قهر القومية العربية بشكل مأساوي، وبعد حصول البلاد العربية على استقلالها، أمضى المؤرّخون العرب بعض الوقت في المطالبة بجعل هذه القرون العثمانية الأربعة جزءً من تاريخهم القومي. وأخيراً ومنذ ثلاثين عاماً فقط بدأت البحوث تتصدّى لتلك الأخطاء التاريخية من خلال دراسة الوثائق التاريخية التي تسمح وحدها بإجراء دراسة دقيقة لتلك الفترة التاريخية الطويلة (ومن بينها سجلاّت المحاكم الشرعية، والوثائق والمحفوظات العثمانية في دوائر الأرشيفات المحلية وفي استانبول)، والتي فتحت المجال أخيراً أمام إعادة تقييم تلك المرحلة الغنيّة وإظهار حقائق النموّ والتحديث الذي طال المدن وأنظمة الإدارة والعيش فيها خلال أربعة قرون ونيّف.

ثانياً: عوامل تأثّر المدن العربيّة بالحركة الحديثة للعمارة الأوروبيّة:

مرّت العمارة العربية مع مطلع القرن العشرين بمرحلتين أساسيّتين صاغت معالمها، وهي:

- المرحلة الأولى: وهي مرحلة الإحلال وإدخال النمط البديل، وهذه المرحلة كانت نتيجة قرارات سياسية بالدرجة الأولى وظهرت بوضوح في مدن شمال إفريقيا بخاصة والتي كانت تتميز بغنى مخزونها التراثي المعماري كالقاهرة وفاس ومكناس وتونس وغيرها، وقد عانت هذه المدن منذ بداية هذه المرحلة - والتي تختلف من مدينة لأخرى حسب تاريخها السياسي - من دخول أنماط منافسة إلى جانب الموروث التراثي المعماري، ففي حالة القاهرة فقد تم ادخال نمط

تخطيطي غربي أولا من قبل الخديوي اسماعيل - والذي كان معجباً بنمط تخطيط باريس - وذلك من خلال (البولفارات) أو الشوارع الواسعة التي تلتقي في ميدان واحد في نهاياتها.

- أمّا المرحلة الثانية: فهي مرحلة العولمة وظهور النموذج الذي يمكن تطبيقه في أي مكان وزمان، وهذه المرحلة بدأت بعد الحرب العالمية الثانية وتميّزت العمارة في هذه الفترة باستعمال مواد إنشائية كانت نتيجة للتطور الصناعي في الغرب واكتشاف الخرسانة المسلحة كمادة إنشائية يمكن تحضير خلطتها في أي مكان ودون انتمائها لهوية ثقافية أو حضارية بعينها دون أخرى، لذا فقد عكست العمارة في هذه الفترة قدرات المادة الإنشائية الجديدة، فظهرت الفتحات الأفقية وسادت ناطحات السحاب من المباني العمودية وغيرها من مظاهر هذا النظام العمراني الجديد.

ويمكن تلخيص العوامل التي ساعدت على ظهور فكر معماري جديد نهاية العصر العثماني مثل الحركة الحديثة في التخطيط والعمران، بالبنود الآتية:

أ -التطور الثقافي والاجتماعي والصناعي في القرن التاسع عشر بعد قيام الثورة الصناعية، فتعددت أنواع المشاريع التي كانت في السابق تتحدد في بناء الكنائس والقصور والمنازل، إلاّ أنه في هذا القرن ظهرت الحاجة إلى بناء مدارس، ومستشفيات، ودور كتب، ومسارح، وبنوك، ومقاه، ومحلات عامة، ومحطات السكك الحديدية والمباني الصناعية...وعلى هذا فقد ظهرت مشكلات جديدة وجب على المهندس المعماري إيجاد حلول لها.

ب- تأثر معماريّ الدول الأوروبية بداية بمدرسة البوزار(BeauxArts) التي تأسست في عام 1806 والتي تدعو إلى التمسك بالتراث والتقاليد.

ج- التحوّل الكبير الذي طرأ على العمارة في بدايات القرن العشرين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية نتيجة التغيّرات السياسية في الأنظمة، أدى إلى لجوء العديد من المعماريين الأوربيين أمثال هوفمان(- Hoffman 1853 1909) وميشيل الفريد Mechel Alfred 1851 - 1932 - لإيجاد أسلوب ملائم ولغة أصيلة وحساسة تنفتح على التبذير في الباروك (فن الزخرفة) فكانت الكلاسيكية المحدثة.

د- العلاقة الوطيدة مع أوروبا التي أدت إلى انتشار فن الزخرفة والعمارة القديمة في تركيا، فكان مهندسو العمارة الإيطاليون يدربون المهندسين المحليين فضلاً عن المهندسين الفرنسيين من أمثال "فوستاي"الذين أضافوا تقنيات وتصاميم أوربية طغت على الطابع المحلي للعمارة.

هـ- ظهور المواد الإنشائية الجديدة وتوظيفها في الهيكل الإنشائي والشكل وإظهار إمكانية كل مادة على حدة.

و- تأسيس مدرسة الفنون الجميلة في إستانبول عام 1883أسوة بالتجربة الفرنسية، ومن المهندسين الذين تمكنوا من الإطلاع على أعمال مهندسين أجانب في إستانبول المهندس الأسباني دي آرانده (De Arandh) الذي صمّم محطة الحجاز في دمشق عام 1902 مستخدماً أسلوب الأشكال المتنوعة والزخارف المتعددة.

ز- الوضوح في الطرق الإنشائية التي تعتمد بدورها على وضوح في استخدام المواد حسب نوعها وخصائصها وتحقيق جيّد للاحتياجات الوطنية، وهو مابرز بظهور حركة "الفن الجديد"1880 - 1910". (ArtNouveau) الناتجة عن مبادئ العقلانية الإنشائية، وهي التي رحبت بالتراث الفني للماضي مع ربطه بأسلوب التحليل الفكري المنفتح للنتاج الإنشائي الحديث.

ح- إعتماد التزيين أساساً على الخط المنحني ذي المنشأ النباتي أو الهندسي وهو استعراض للمهارة الحرفية من خلال استخدام مواد بنائية وتفاصيل دقيقة، كما اتصفت بظهور عنصر الشرفة (balcons)المحمولة على أحجار بارزة "كوابيل"(corbeaux)كعناصر تزيينية في الواجهات، فضلاً عن الاهتمام بفكرة تأطير النوافذ وكان هذا تجديد لدور الحرفي وإعادة توظيف للأدوات المستعملة في البناء. واستجابة لهذه العوامل مجتمعة نجد أن المهندس قد تعرّف على المشكلات الخاصة بكل مشروع بعد أن كان لا خلاف بين تصميم مبنى المستشفى ومبنى المكتبة العامة، فوضع التصميم الذي يلائم الاستعمال ووظيفة المبنى، بل وأصبح كل مبنى يتميزبمسقط خاص، فنجد أن مباني البنوك كانت تتميز بصالة مركزية ذات سقف زجاجي يتجه نحو الشمال، أمّا في مباني المتاحف فروعيت دراسة الإضاءة الطبيعية والاستفادة منها بقدر الإمكان، وتعددت التصاميم بالنسبة إلى مباني الإدارات لكي يتلاءم المسقط مع طبيعة الاستعمال لكل مبنى، رغم كل هذا كان الهدف الأساسي لمهندسي هذا القرن الاهتمام بتشكيل الواجهات وتجميلها وإبرازفتحاتها بنسب متوافقة ومتوازنة.

ثالثاً: الاتجاهات الاقتباسية للعمارة الكولونيالية وتحديات التغيير للهوية المعمارية في المدن العربيّة:

أ- الهوية المعمارية في مدن المغرب العربي:

مع بداية الاحتلال الفرنسي لدول المغرب العربي خضعت هذه الدول إلى تناقضات أخلت بتوازنها مع بدء تنفيذ المشاريع الاستعمارية، وأوجد نتاجاً معمارياً هجيناً بين المدينة الأوربية والمدينة الإسلامية، وارتبط التخطيط المديني بالحالة الإجتماعية والإقتصادية لكل مدينة، فبداية مهّد المستعمر في الجزائر لقدومه فمنذ عام 1836 وخلال 40 عاماً دخلت فرق فرنسية وعملت

على أربع مدن رئيسية وهي الجزائر ، عنابة، بجاية، وهران، ومن ثم أصبح الاحتلال في الجزائر كاملاً باستخدام القوة العسكرية فقام المحتل بتقسيم الأراضي والأملاك بين القبائل المنفصلة فشرعت منذ أربعينيات القرن التاسع عشر تضع الخطط لتوسعة هذه المدن القديمة الموروثة، ولاسيما الساحلية منها وبعض المدن الداخلية كقسنطينة ، واعتمدت على العمال المحصور عملهم مع الجيش.

أمّا في تونس فقد كان الإحتلال يطبق عملياً حيث استعمل شريحة من المجتمع كأداة ضغط، وفي المغرب قام الإحتلال باستخدام نظام المحافظة والهيكلية الاجتماعية، وبذلك اختلفت آثار الإستعمار في البلدان الثلاثة من جهة البناء المديني العمراني فكان لكل دولة تنظيم مختلف.

ومن ثم أنتجت مدناً جديدة على الطراز التقليدي سميت بالمدينة (Medina)وكانت هذه المدن تلبي حاجات الاستعمار العسكرية حيث عيّن المسؤولون الأساسيّون من المهندسين العسكريين الذين قاموا بتنظيم مخطط عمراني يحدد الفراغ العام للمدينة، وأقاموا الحدود التي تفصل بين الفراغات العسكرية والمدنية أنشأوا الطرق التي تخدم المباني الفرنسية الهامة، واعتمد المحتل الفرنسي في الجزائرعلى إقامة مشروع الحدود وذلك بتحديد مجال المدن القديمة المتحولة، ومن ثم ربط مراكز المدن بقرى المحتلين الجديدة، عن طريق إنشاء الطرق الجديدة وسكة حديد لإتمام عملية الربط، وفي العام 1840 عيّن المارشال بوغو(Bugeoud) رئيساً عاماً، وعمل على خلق نقاط مركزية وجعلها كقاعدة للعمليات، فضلاً عن تأمين خدمات تقنية ترتكز عليها هذه المدن حدّدت فيما بعد المهام التي يجب المباشرة بها من خلال مشروع أطلق عليه اسم مشروع (Génie) ويهدف إلى محاكاة واقع المدينة مع المخطط التنظيمي (Alignement)، فبدأ بالعمل على تخطيط البنية التحتية لمجاري المياه ووضع

الفرش الطرقي من نباتات وأشجار، وعبدت الطرق وممرات المشاة، ومن ثم انتقلوا إلى بناء الأسوار المحيطة بالمدن لحمايتهم وجعلوا أبواباً لها.

أمّا في تونس والمغرب فقد غيّر المستعمر من خطته وأوقف عمليات الهدم التي حصلت في الجزائر فبدأت مرحلة جديدة للتخطيط العمراني، الذي اعتمد الإبقاء على المدن القديمة ودمجها مع المدن الجديدة، فكان التماساً واضحاً بين المدينتين، في حين كانت معظم المباني العسكرية تقام خارج حدود المدن القديمة وكان أول مهندسيهم المعماري هيري بروست (Heri Prost) أوّل من وضع المخطط المديني بمقياس كبيروفق النقاط الآتية:

- المحافظة على الأحياء المغربية لجماليتها.
- خلق شريط أخضر ضمن الأراضي الواسعة.
- رسم وبناء المدن المتطورة الأنيقة وفق النظم الأوروبية للتخطيط.

وهنا برزت مجموعة تيارات في العمارة كان أهمها طراز أسماه الفرنسيون "أرابيزانس" (Arabisance) وأطلق عليه بعضهم تسمية الحداثة أو الحداثة الكلاسيكية، ووصفه بعضهم بالعقلانية المحلية، واستلهمت مصادره من العمارة البرجوازية في أوروبا ولاسيما طرّازي الباروك والركوكو.

وفي عام 1855 كرّس المعماري "بانز" هذا الطراز في معالجة الواجهات وتفاصيلها من عناصر مستلهمة من العمارة الفاطمية والمملوكية، وقد توسع هذا الطراز بقدوم المعماريين المرافقين للجيوش الغازية، وفي عام1911 بدأ المستعمر في المغرب بإنشاء سلسلة من المدن الساحلية التجارية، وأولت العناية لمدينة الدار البيضاء في مركزها الحضري فبنت مجمع المحكمة والإدارة الاستعمارية، وهو اليوم من أهم المعالم شداً للأنظار لجمالية تركيباته، وكذلك

حي الحكومة في مدينة الرباط المبني على الطراز المعرّب"Arabisance" وبعض الأحياء الجديدة التي خصصت للأوروبيين، وقد كان جلُّ هذه الأعمال قد نفذ بمساعدة المعماري الفرنسي "هنري بروست"وزميليه"افورغلابارد"، وفي معظم تلك المدن اعتمدت السلطات الفرنسية على القدرات المحلية المغربية وقد أشاعت هذه الحركة انتعاشاً في بنية العمالة التقليدية مثل معلّم البناء ومعلّم النجارة ومعلّم التبليط ومعلّمي الجص والزخرفة، واستمر هذا الطراز في تونس متمثلاً في بعض الأبنية التي تخدم الهدف العسكري والإداري.

وقد أمرت السلطات الفرنسية بجلب عدد من المعماريين الفرنسيين أكثرهم حامل للفكر التحرري، وقاموا بزيارة مدن البلد، قديمها وحديثها لإغناء فكرهم وليستلهموا من تراثها أفكارهم، ومنهم المعماري جاك مارمي(Jaques Marmy) الذي بنى البلدية في مدينة بنزرت، وجامعة القيروان، وقد سبق لهذا المعماري أن عمل في المغرب وتعلم من أسرار حرف البناء المغربي، وكذلك المعماري برنارزيرفوس Bernard Zerhfuse الذي صمّم أبنية متميزة في مركز مدينة سيدي بوزيد، وكذلك المعماري جاسون كيرياكوبولوس(Jason Kyriacopolos) الذي أعاد تخطيط مدينة بنزرت إبان الاحتلال الفرنسي .

أمّا في الجزائر فتمثل الطراز "الغربي المعرّب" في بناء محطة القطارات في مدينة وهران، ومكتب البريد المركزي في حي القصبة التاريخي،وقد تناول كتاب "تاريخ المدن" للشيخ المهدي البوعبدلي دراسة تنظيم عاصمة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي ثم بعده، ويظهر بجلاء ماذا فعل بها الاحتلال وكيف طمس متعمّداً معالم العمارة فيها، ويوضّح أن من الوثائق المهمّة الموجودة في دراسات المؤرّخين والرحّالة التي تدلّ على ذلك ما كتبه المؤرّخ الإسباني "هايدو" حيث ذكر في تصميمه الذي نشر سنة 1612 بعنوان (Topographie d'Alger) أن

عاصمة الجزائر يبلغ عدد مساجدها 100 من بينها سبعة مساجد كبيرة، وفي سنة 1830 كان بالجزائر ثلاثة عشر مسجداً جامعاً و109 مساجد صغيرة، و32 ضريحاً ومدرسة، و12 زاوية، ويذكر كتاب "تاريخ المدن" «أن معظم المساجد هُدمت بدعوى تخطيط المدينة وتوسيع شوارعها الضيقة، ما بين ساحة الشهداء الحالية، وثانوية الأمير عبدالقادر». حيث لم يبق في سنة 1862 من البنايات التي سبق وأحصاها Devoulx إلاّ 9 جوامع كبيرة، و19 مسجداً صغيراً، و15 معهداً وضريحاً، وخمس زوايا.فقد هدم الإحتلال في مدة 32 سنة 129بناءً دينياً، ثم إن هذه البقية لم تبق كلها تحت تصرّف المسلمين، بل بقي منها للمسلمين 21مبنىً: 14جامعاً كبيراً و8 مساجد صغيرة و9 أضرحة أو معاهد، أما 26 فقد حُوّلت إلى كنائس، أو مخازن ودكاكين.وذكر الكتّاب أن الجزائريين تفوّقوا على معاصريهم الغربيّين في فن البناء.

ب- الهوية المعمارية في ليبيا ومصر:

أمّا في ليبيا وإبّان هجرة البنائين الإيطاليين في العشرينيات بسبب الأزمة الاقتصادية في بلادهم فقد شهدت مدن طرابلس وبنغازي أعمالاً كثيرة مثل البنك الوطني في طرابلس، بنك الآمة، وكثير من الواجهات للمباني التي غطيت بالحجر الصناعي والرخام .

وقد امتدت هذه الموجة إلى مصر فنجد أن الطراز "المعرّب" ظهر في الأبنية التي أنشأها الأوربيون في مدن القاهرة والاسكندرية، وخصوصاً أبنية الإدارات العسكرية والمواصلات والقصور، وأجملها مشهد و جامع الشيخ المرسي أبو العباس في الإسكندرية الذي صممها المعماري الإيطالي ماريوس روسّي عام 1928(MariosRossi)، وفي عمائر حيّ السكاكيني الذي سمي كذلك نسبة

للقصر الذي بنيّ فيه على يد معماريين إيطاليين جاؤوا خصيصاً للمشاركة في بناء القصر الذي يعدّالنموذج المجسم لفن الروكوكو.

ثم تبع ذلك النهج محمد علي والي مصر وتمادى فيه، واستأنس هو ومن تبعه أن يستجلبوا المعماريين الغربيين ليسدوا إليهم المشاريع العمرانية الكبرى، وخاصة في أحياء القاهرة الجديدة (الأزبكية،والعباسية والحلمية) وكذلك المدن الجديدة على طول قناة السويس بعد افتتاحها عام 1869، مدن بور سعيد والإسماعيلية وبور فؤاد.

ومن أولى المحاولات في ذلك المنحى مبنى محطة السكة الحديد التي تسمى "باب الحديد" نظراً إلى وقوعها على مقربة من أحد أبواب القاهرة قرب الأزبكية، الحيّ الراقي الجديد التي صمّمها المعماري الإنكليزي "آدونبانز" عام 1855 بعد أن تعاقدت الحكومة المصرية مع شركة بريطانية لإنشاء خط سكة الحديد. ونجد أن المعمار بانز حاول في هذا الصرح أن يكرّس الطراز "المعرّب" في بعض هياكلها، كبرجها ذو الساعة وكذلك من خلال معالجة الواجهات، وتفاصيل المعالجات الداخلية من عناصر مستلهمة بحذافيرها من العمارة الفاطمية والمملوكية،دون أن يعطّل من الوظيفة التي تؤديها الفضاءات المعمارية.

ج- الهوية المعمارية في سوريا ودمشق خلال نهاية المرحلة العثمانية وفترة الانتداب الكولونيالي:

في سوريا وفي نهاية القرن التاسع عشر كان التخطيط المديني أو التخطيط العام لمدينة دمشق يعود للسلطات العثمانية، وفقاً لقانون يحدد بعض الأنظمة التي تخص البناء ومحيطه العمراني من شوارع وأملاك تجاوره بشكل مباشر، وكانت الإدارة العثمانية تقسم المدينة إلى ثمانية أجزاء، وكل جزء يدعى الثمن وكان على رأس كل ثمن رئيس يساعده مجلس مؤلف من شيوخ

حارات الثمن. فجاء التطور العمراني المدني قائماً على مجموعة من الأسس التنظيمية العملية رغم قلّة المؤسسات البلدية فكان التنظيم على أساس روح التشاور في تطوير المرافق العامة وتنظيم الأحياء، وفي نهاية هذا العهد بدأ بالعناية بالمواصلات الداخلية والخارجية فربطت دمشق بسكة حديد تصلها ببيروت وحوران والحجاز، وشقت في المدينة طرق حديثة تصل المدينة القديمة بأحيائها البعيدة وقامت شركة بلجيكية عام 1905 بإنارة دمشق وتسيير خطين للحافلات "الترامواي" انطلاقاً من ساحة المرجة، ثم تفرّع فيما بعد إلى حيّ الشيخ محي الدين والثاني إلى المهاجرين.

وفي عهد جمال باشا شق شارع من سوق الحميدية إلى محطة الحجاز عرف بشارع جمال باشا وسمي في عهد الانتداب بشارع النصر (LaVerda) كما وردت التسمية في مخططات الرفع الكادسترائية، وشق شارع آخر جانب المحطة إلى باب سريجة عرف باسم "شارع خالد بن الوليد". ومن ثم استمرت الحركة العمرانية بإقامة أربع كليّات معمارية شهيرة شيّدت كلها خارج الأسوار، أوّلها في الصالحية وهي التكية المؤلفة من جامع وتربة على ضريح الشيخ محي الدين ابن العربي أنشأها السلطان سليم، والثانية هي التكية السليمانية والمدرسة المجاورة لها أنشأها السلطان سليمان القانوني، ثم ظهرت كليّة الدرويشية التي شيّدها الوالي درويش باشا عام 1574، ثم كليّة السنانية التي شيّدها سنان باشا عام 1586.

وفيما بعد نشطت الحركة العمرانية على يد الولاة من أسرة آل العظم حيث بنيت أيام محمد باشا العظم السرايا القديمة خارج السور وذلك في عام 1780، ثم حدث تطور كبير على مخطط المدينة وشقت فيها طرق جديدة وجددت أسواق ومناطق وأحياء، كحي القنوات، الذي ضم مساكن الطبقة

الأرستقراطية التركية التي تجمّعت حول السرايا التي سبق ذكرها، ثم نشأ حيّ الأكراد بسبب قدوم مستوطنين جدد في شرق الصالحية وحي المهاجرين في غربها، وطرأ على حي الميدان نموّ جديد أدى إلى اتصال البناء على طريق باب الجابية والميدان.

من هنا نرى أنه كان في دمشق إدارة لتخطيط مدينة أوتنظيم بلدي بالمعنى الحديث للكلمة، فقد كان هناك نظام للبناء العثماني المؤرخ بتاريخ 1877 وما قبل، ذكر فيه مجموعة من القوانين والأنظمة التي حكمت المدينة وتطورها المعماري في تلك المرحلة، وهنا تجدر الإشارة إلى الدراسات المعمارية التي تمت في بدايات القرن العشرين ولاسيما خريطة شرطة دمشق التي كانت كمخطط تيبوغرافي يوضح تنظيم مدينة دمشق وبداية توسعها العمراني خارج الأسوار،حيث يبدو النشاط الإداري الرئيسي في منطقة المرجة، ووجود خطين لحافلات الترام الكهربائية. وقد ترك العهد العثماني بصماته العمرانية واضحة بتنظيم شارع النصر، وتدشين الخط الحديدي الحجازي ، وقد قام نظام البناء الفرنسي فيما بعد على كثير من بنود النظام العثماني. ولم يقتصر هذا التطور فقط على مخطط المدينة بل طال البناء والعمارة، حيث نلاحظ تحوّل في أمثلة كثيرة في مدينة بدمشق كانت تحمل لمسات يونانية قديمة لبناء شيّد على الطراز الأوروبي، ومثال على ذلك مبنى السرايا الذي بني عام 1900 وأصبح مقراً لرئاسة الوزراء بعدالاستقلال عام 1946، وعلى غرار ذلك نلاحظ النهج الجديد في التصميم في مبنى دائرة الشرطة والأمن العام ومبنى العابد الذي أنشأه عزت باشا العابد وأشرف على بنائه فرناندو دو أراندا(Fernando de Aranda) (1908– 1910).

د- الهوية المعمارية في لبنان وبيروت خلال نهاية المرحلة العثمانية وفترة الانتداب الكولونيالي:

تعرّضت بيروت خلال القرن التاسع عشر لسلسلة من التغيّرات الجذرية طالت بنية المدينة بشكل عام، مما ضاعف من حاجاتها إلى حيازة جهاز متكامل للتواصل وتأمين الخدمات بما يتوافق ومصالح الفعاليّات التجاريّة فيها. فبيروت هي إحدى أهمّ المواقع القادرة على تنمية العلاقات مع الدول الأوروبيّة، بخاصّة على الصعيد الإقتصادي، وقد أسهم مرفؤها بصورة رئيسة بتطوير هذه العلاقات على اعتبار أنه من أكثر موانئ شرق البحر المتوسط حيويّة وحركة. هذه التطورّات والتغيّرات التي عرفتها بيروت أمّنت لها موقعاً مميّزاً على الخارطة الإداريّة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876–1909) منذ تحويلها إلى مركز لولاية حملت اسمها عام 1888. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر برز نمط جديد من العلاقات السياسيّة والإجتماعية بين الإدارة العثمانية وأهالي بيروت، وبدأت هذه الصور تتضّح أكثر فأكثر من خلال ظهور نخبة بيروقراطيّة من البيروتيّين أسهمت إسهاماً فاعلاً في الإدارة المحليّة للمدينة.

وكان لهذه الفئة قدرة ملحوظة في تعزيز الرّوح العثمانية في المدينة وخلق جوّ من التفاعل بين السكّان المحليّين والإدارة الرسميّة، مما ساعد في العمل على تفعيل المؤسّسات وتنظيمها وبروز نهضة عمرانيّة واقتصاديّة كان لها مردود إيجابي على البيروتيّين. هذه الديناميّة في العمل الإداري والجهود التي بذلها المثقّفون البيروتيّون ورغبتهم في تحديث وتطوير مدينتهم لتصبح بمستوى طموحاتهم وتطلّعاتهم، لفتت نظر القيّمين على الإدارة العثمانية وعلى رأسهم السلطان عبد الحميد الثاني، وبرز ذلك من خلال اهتمام الحكومة بمتابعة نشاط الفعاليّات المؤثّرة في بيروت وتشجيعها على المضي قدماً في هذا المضمار.

ومع منح السلطان عبد الحميد الثاني بيروت عام 1888مركزاً إداريّاً هامّاً حيث أضحت حاضرةً لولاية كبرى، بدأ إثراؤها بالإنجازات العمرانيّة التي تمثّلت بإقامة أو حتى ترميم العديد من المؤسّسات الحكوميّة والعسكريّة (الثكنة العسكريّة السلطانيّة عام 1877-1894 التي أضحت اليوم مقرّ رئاسة الوزراء السراي الصغير عام 1884، مخافر عِدّة تزيد عن 12 مخفراً)، والمؤسّسات التعليميّة (المكتب السلطانيّ عام 1883، المكتب الرشديّ العسكريّ عام 1874، مكتب الصنائع الحميديّ عام 1907 الذي أصبح اليوم مقرّ وزارة الداخليّة، وإعطاء التراخيص لإنشاء المكاتب الإرسالية ومنها الجامعة الأميركيّة والجامعة اليسوعيّة اليوم.. وغيرها)، والمؤسّسات الصحيّة (المستشفى الحميدي عام 1907، ترميم المستشفى العسكريّ عام 1892، ودائرة الحَجْر الصحّي "الكرنتينا" عام 1894)، وكذلك إرتفاع المعالم التذكارية (برج الساعة الحميديّ بجوار السراي الكبير عام 1899، السبيل الحميديّ عام 1900) ودور العبادة من كنائس (إرتفع عدد الكنائس في بيروت من 20 إلى 30 كنيسة) وجوامع (مسجد رأس النبع، جامع المصيْطبة، مسجد عين المرَيسة، جامع البسطاالفوقا.. وغيرها)، وإنشاء محطّات البريد والتلغراف عام 1899، وإقامة الحدائق والمنتزهات (الحديقة الحميديّة وسط ساحة البرج عام 1879، حديقة الصنائع عام 1907، وتنظيم غابة الصّنَوبر)، وهي أبنية رشيقة وحدائق جميلة صمّم جلّها مهندس بلدية بيروت وقتها اللبناني يوسف أفتيموس(1951 - 1866) الذي ترك بصماته في كل أرجاء بيروت.

كما تمّ بمأزرة وتأييد السلطان تنفيذ كافة المشاريع الإنمائيّة والخدماتيّة العصرية في المدينة، كإنارة شوارعها بالغاز المستخرج من الفحم الحجريّ عام 1887 (وذلك قبل إنارة شوارع العاصمة استانبول نفسها بسنة واحدة) وجرِّ مياه نهر الكلب لتوفير مياه الشَّفَة وريّ البساتين عام 1870، وتحديث

البنى التحتيّة في مجال المواصلات (شقّ الطرق داخل المدينة، مدّ سكّة حديد بيروت – دمشق عام 1895، إنشاء محطّة قطار المرفأ عام 1901، تشغيل الترامواي الساحلي بين بيروت – المعاملتين عام 1891، والترامواي الكهربائيّ داخل المدينة عام 1906)، وتطويروتوسيع مرفأ المدينة عام 1892وإنشاء مبنى الجمرك والمنارات (ومنها تلك التي أعطت اسمها لمحلّة المنارة). ولمواكبة هذا التطوّر بما يتناسب مع استخدام السفن البخاريّة والقطار في عمليّات النقل شهدت بيروت إنشاء المستودعات والأسواق وإقامة المحلات التجارية الفخمة والمصارف والفنادق والمكتبات والمقاهي والمنتزهات.

فرض الإنتداب الكولونيالي في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تنظيماً مدنياً منقولاً، إذ بدأ بهدم النسيج المدني التقليدي معتمداً سياسة الأرض المحروقة، فقد أتوا بمهندسيهم وبمنظمي المدن عندهم أمثال دانجيه في الثلاثينيات وتبعهم ايكوشار(Ecochard) بمهمة عسكرية خلال الحرب العالمية الثانية إلا أن الدلالة على مقاومة النسيج التقليدي للتنظيم المدني الأوروبي ظهرفي معظم المدن القديمة، ومن الأمثلة على ذلك عدم اكتمال ساحة النجمة في بيروت والبرلمان اللبناني في وسط بيروت، فقد كان دخول التيار مع دخول الفرنسيين، فتسربت اتجاهات العمارة الأوروبية الشائعة بواسطة المعماريين المحليين الذين درسوا في الغرب، وإن أوّل من بدأ بإدخال هذا الأسلوب الجديد في العمارة المحلية كان الأميربشيرالشهابي(1760-1850)، حيث جلب مجموعة من البنائين الإيطاليين لبناء قصره في "بيتالدين" الواقع في جبل لبنان والذي استغرق بناؤه 30سنة.

على أن أهمّ تغييرطرأ على نظام العمارة التقليدية في لبنان، تمّ بعد ظهور عمارة تتبع الطراز المتوسطي نسبة للمباني التي انتشرت على امتداد شواطئ

البحر المتوسط، ويعدّهذا الطراز تطويراً للطراز الكلاسيكي المحدث. ولكنه أحدث انقلاباً كاملاً في نظام العمارة المحلية، ويعود السبب في انتشار هذه العمارة إلى وجود جاليات أجنبية، والانفتاح على الثقافة الأوروبية. ومن ثم قام هذا الطراز على مبدأ الانفتاح الكامل على الشارع مع الاعتناء بالواجهات التي زيّنت بالفتحات والنوافذ المؤطرة والمتوجة. كما يمتاز بظهور طوابق تعلو قبواً واسعاً وفي ذروته غرفة أو مجموعة غرف يعلوها سقف جملوني قرميدي، حيث أنشأت مجموعة من المباني التي طبعت مدينة بيروت بشكل مميّز في تلك المرحلة، وتجلى ذلك في أهمّ الأبنية العامة مثل بناء البرلمان اللبناني في وسط بيروت، وبناء السراي الحكومي الكبير.

ويأتي المعماري "أنطون ثابت" في مقدمة الذين اقتبسوا بنجاح، وقد تتلمذ على يد المعمار الفرنسي الفذ "أوغست بيريه" فقد استعمل الهيكل الإنشائي الخرساني الظاهر في الواجهات والمتتابع بإيقاع ينظم المجال المبني، وكذلك استخدم الحجر الخرساني وفق موديل(Module)كُرّر بين الأعمدة بقياسات المبنى، واستعمل الأحجار المفرغة (كلوسترا) في الشرفات.ومن أبرز المعماريين الذين ساروا في هذا الطريق. "شارل شاير" و "واثق أديب" و "جورج ريس"، ومنهم أيضاً المهندس "جوزيف فيليب كرم"، فأنتجوا عمارة فيها ملامح الشخصية المحلية عبر ملاءمتها للظروف المناخية العامة مثل الشرفات الناتئة المظلّلة، وكاسرات الشمس والأحجار الخرسانية المفرغة(المشربيات).

خامساً: السمات والخصائص المدينيّة والمعماريّة للمدينة العربيّة نهاية العصر العثماني:

بعد أن تمّ تفصيل الخصائص المدينيّة والمعماريّة للمدينة العربيّة نهاية العصر العثمانيّ وفترة الانتداب الكولونيالي،يمكن تلخيص السمات العامّة لعمائرها بالنقاط الآتية:

- جاءت معظم الأبنية الحديثة مناسبة للمناخ السائد الذي يميل إلى الحرارة والجفاف والذي تطلّب طريقة معمارية في التكيّف مع ظروفه،خدمة للإنسان سواء في الصيف حيث يحتاج الساكن إلى تسريب تيارات الهواء، أو في فصل الشتاء حيث لابدّ من الاحتفاظ بالمكتسب الحراري.

- كان ظهور وسائط النقل الحديثة منذ القرن العشرين أهم مسبب في تعديل النظام العمراني للمدن،هذه الوسائط كالسيارات التي حلّت محل عربات تقودها الخيول، فرضت نظام الشوارع العريضة والمستقيمة، ومن ثمّ فرضت نظاماً معمارياً ينسجم والتنظيم العمراني و أشكال الشوارع الجديدة.

- ظهور الوجائب حيث تباعدت المباني عن بعضها و انفتحت البيوت على الشارع الذي شكل هيكل المدينة الحديثة وخارطتها، وتخلّت المباني عن خصائصها الجوارية،كما تخلّت عن كتلتها المتراصّة المنخفضة واستبدلتها بكتل تتبارى بالتعالي و الارتفاع.

- اختلف "المقياس الإنساني "الذي يخصّص العمارة لساكنيها وليس للمدينة، وحلّ القياس الرياضي الذي يسعى إلى تحقيق انسجام الكتل المعمارية وفراغاتها مع نظام الشوارع المتصالبة، وعاد النظام الشطرنجي الذي كان سائداً في العصور الكلاسيكية،في المدينة الإغريقية أو الرومانية، ليصبح منطلقاً لتنظيم المدن الحديثة.

- أصبحت العمارة وليدة التقنيات والمهارات والمواد المستعملة وارتبطت بالسيطرة المطلقة للتكنولوجيا المتقدمة على طرق البناء وعلى المعماريين.

- ظهور الزخارف الباروكية الحجرية التي انتقلت إلى المدن لعلها جاهزة مسبقة الصنع، من إيطاليا وفرنسا وألمانيا.

- على الرغم من التشابه في جلّ المفردات للعمارة ذات الطراز الكولونيالي التي نشأت في مدن المغرب العربي، إلا أنّ الاختلاف في هذه العناصر بدا واضحاً في مدن المشرق العربي متأثراً بالهوية المعمارية الخاص بكل منطقة.

الخاتمة:

استطاعت العمارة العربية مطلع القرن العشرين أن تواجه نوعاً ما التغيير في الهوية، ربما لأن المحتل الكولونيالي أظهر بعض الليونة في هذا المجال، أو لأن عمارة الطراز الدولي لم تكن قد سيطرت على العالم بعد. فاستطاع بعض المعماريّين- بالمقاومة وبالمهارة- أن يحافظوا على ملامح من شخصية وهوية العمارة العربية في عمارتهم، فأنتج بعضهم عمارة حافظت على خصائص محلية عُرفت باسم "العمارة الكولونياليّةالمستعربة"، إذ ظهرت فيها سمات لهوية عربية إسلامية في العمارة؛ وأنتج بعضهم الآخر عمارة مهجّنة عُرفت "بالعمارة المشرقية"، والتهجين فيها هو تلقيح هيكل عمارة السكن المصنوع من الخرسانة المسلحة الوافدة حديثاً، بعمارة البيت البورجوازي ذو اللغة المعماريّة المركّبة (العثمانية، العربية والإيطالية، والذي انتشر في بيروت في مدن الساحل الشرقي للمتوسط كما في الجزائر ودول المغرب العربي بدأ من منتصف القرن التاسع عشر.

ومع نهاية القرن التاسع عشر،ثمّة مدن عربية كان لها حيويتها وإشعاعها وتأثيرها سياسياً وثقافياً، وهذا تحقّق نوعاً ما في القاهرة و بيروت وبغداد و الجزائر، ولكن تبقى "الكوزموبوليتية"التي اكتسبتها هذه المدن وعمارتها من جرّاء التحديث والتأثير الغربي نوعاً آخر من عبقرية المكان وسحره. وهذا ما لم تنله أيّ مدينة عربية باستثناء البصرة التي سميّت فينيسيا الشرق إبّان القرن السابع عشر، والقاهرة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبيروت والجزائر في النصف الأول من القرن العشرين، وخصوصاً امتلاكها أكبر قدر من الجاذبية والسحر والأناقة الجغرافية.

لقد انتعشت عبر تاريخ حضاري طويل "كوزموبوليتيّات" عربية عدّة جاذبة في نظر العالم كله، مدن كانت وظّفت عبقرية إمكاناتها وابتكرت نضوجاً حضارياً، مثل البصرة والموصل والإسكندرية وتونس وقرطبة ووهران والدار البيضاء وطرابلس وبنغازي وحلب ودمشق والقدس وحيفا وطرابلس اللبنانية وغيرها،إذ لعبت أدواراً أساسية في تغيير الذائقة الحضارية والإقتصادية العربية، وكان العالم كله يتعطّش لها بفارغ الصبر نظير غناها المعماري وتطوّر تخطيطها المديني وقوتها الاقتصادية وتأثيرها في التجارة وصنع الحياة والثروات والبهجة والتقدم.

لقد كان لهذه المدن الكبرى أدوارها الرائعة في النصف الأول من القرن العشرين، لكنها انتكست جميعها اليوم انتكاسات مريرة، في حين نضجت على مهل في النصف الثاني من القرن العشرين مدن حديثة في الخليج العربيّ، مثل الكويت ودبي وأبوظبي وجدّة ومسقط والمنامة والدوحة وغيرها،وذلك بفعل قوة الموارد والاستثمارات وتطوّر الحياة، لتغدو مدينة دبي على سبيل المثال أقوى مدينة "كوزموبوليتية" عربية مع مطلع القرن الحادي والعشرين، نظراًلما حقّقته

من تطوّر مديني ومعماري هائل وإنجازات اقتصادية ومكاسب حضرية يحتذى بها، فضلاً عن عواصم تلحق بها مثل أبو ظبي والدوحة، وكلها "كوزموبوليتيّات" تسودها اليوم الدهشة والرغبة في المغامرة عمارةً وفكراً وحياةً وقوةً اقتصادية وحركة استقطاب تجاري مؤثر.

إن مسؤولية المعماري المعاصرة في الوطن العربي تحتّم عليه أن يعيش الماضي والحاضر و المستقبل في تصميماته وابتكاراته وإبداعه،لأن الماضي مازال بيننا بتراثه المعماري يشعّ حضارةً وثقافة ويفرض ذاته في الفراغ. لقد ساهم العرب خلال تاريخهم الطويل برفد الحضارة البشرية بإنتاجهم الغني وذلك بفضل انفتاحهم على الشعوب الأخرى وثقافاتها المختلفة، فأبدعوا في شتّى المجالات. وقد شهدت حواضر عربية عدّة تجارب تفاعل ثقافي حيّ، معماري وحضاري خلال العصور المختلفة، ولعل أبرزها في التاريخ تلك التي تناولناها تفصيلياً في بحثنا من مدن المشرق والمغرب العربي.

المراجع العربية:

- دمشق في منتصف القرن التاسع عشر–بنيتها ووظائفهاالعمرانية بقلم جانبول باسكوال.

- لمحات من تاريخ العمارة والحركات المعمارية ورواده،شيرين إحسان.

- نظرةعلى العمارة الأوربية، سيرزا دلمعي مصطفى.

- دمشق تاريخ وصور، قتيبة الشهابي.

- مدينة دمشق ثمراتها ومعالجتها الأثرية،عبدالقادر الريحاوي.

- دمشق وأهميتها العمرانية والمعمارية عبرالعصور، بشيرزهدي.

- دمشق الشام، جانسو غاجيه .

- العمارة عبرالتاريخ، د. عفيف بهنسي.

- تاريخ لبنان،في ليبحتي.

- من العمارة إلى المدينة، رهيف فياض.

- ساحة النجمة : دراسةعمرانيةمعمارية، ندى محفوظ.

- العمارة الدمشقية وتفاعلها مع التراث، د. عفيف البهنسى.

المراجع الأجنبية :

- Baroque and Rococo Architecture - by HenryA.millon,the great ages of world architecture.

- Late Baroque And Rococo Architecture-Christian Norberg–Schulz .

- Denise Basdevant L' ArchitectureFrancaiseBibliothe'que des Guides Bleus-

- Charles plumet and Xavier SchoelKopt- fromHistorcism to Artnouvea-The 20thCentury

- Historice de l'Architecture-"Augustchoicy(1844-1904).

- Viollet le duc - Entertiens Sur L'Architecture–1863-1872 –

- Francois-Be'guin-d'ecor architectural et trace

- Urbain en Afrique du Nord 1830-1950Arabisances

- Christian Norberg–Schulz ,Late Baroque andRococo Architecture

- HCA II Histoire et Chritique deL'Architecture,M.Foura.Mohame

- In Etat et Societe'an- Maghreb,edAnthropos

المراجع الالكترونية:

- http://www.azzaman.com/azzaman/ftp/articles/2003/09/09-03/699.htm

- http://www.delecampe. net,Accessed in:1\6\2009

- http://www tunisie-cap-1900.net,Accessed in:1\6\2009

- www.tunisie-cap-1900.net,Accessed in:1\6\2009

- www.homslife.com/site/index.php?option=comrs

- http://irbid.hooxs.com/t47829-topic

-http://dvd4arab.maktoob.com/showthread.php?-46-t=2193376

- http://news.traveler pedia.net/wp-Paris-1975

- http://news.traveler pedia.net/wp-contentuploads/2010/04/qasba-01jpg/azzaman/ftp/articles/2003/09/09- 03/699.htm